مجلة المعيار
AL-MIEYAR Journal
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/317

المجلد: 13 العدد: (1) جوان (2022) ص807/ 821

الخرافات نصوص أدبية عابرة للغات والآداب

Fables are literary texts that cross languages and literatures

الدكتور: فتح الله محمد•

جامعة تيسمسيلت – الجزائر

fathallah.mohamed@cuniv-tissemsilt.dz

معلومات المقال

تاريخ القبول: 2022/03/13

الكلمات المفتاحية:

- ✓ الخرافة،
- ✓ التبادل الثقافي،
- ✓ الترجمة،
- ✓ التأثير،
- ✓ عالمية الأدب

الملخص

يعالج موضوع هذا البحث هجرة الخرافة من الشرق إلى الغرب مرورا بفارس والعرب، ومركزا بشكل خاص على الحكيم الهندي بيدبا، وإيسوب والطبيب الفارسي برزويه، وابن المقفع، وصولا إلى لافونتين الفرنسي. وقد سعى البحث لتتبع هدا المسار الأدبي الإنساني وبيان أثر هذه الحكايات على آداب الأمم المختلفة، ودورها في خدمة وتربية الناشئة. ويبدو أن هذه التجربة الأدبية العابرة للأوطان والأزمان تحيلنا على حوار الحضارات والثقافات، وهي محاولات لتبادلات ثقافية وأدبية عبر الترجمة الشيء الذي لا يتحقق إلا بالانفتاح الطوعي لهذه الحضارات على الحضارات الأخرى، وتقبل التأثيرات الوافدة من الخارج. هكذا يمكن النظر إلى فن الخرافة باعتباره منجزا أدبيا شاركت في إثرائه كثير من آداب الأمم المختلفة، لذا يدخل في إطار مفهوم عالمية الآداب.

Article info

Accepted:13/03/2022

Keywords:
The fable,
cultural exchange, translation, influence,
the universality of literature

Abstract :

The subject of this research deals with the migration of the fable from east to west through Persia and the Arabs, focusing in particular on the Indian sage Bidpai, Aesop and the Persian doctor Borzouyeh, and Ibn al-Muqaffa, all the way to the French La Fontaine. The research sought to follow this human literary path. And an explanation of the impact of these tales on the manners of different nations, and their role in serving and educating young people. It seems that this transnational literary experience refers us to the dialogue of civilizations and cultures, which are attempts at cultural and literary exchanges through translation. Something that can only beachieved by the voluntary openness of these civilizations to other civilizations, and the acceptance of influences from abroad. Thus, the art of superstition can be viewed as a literary achievement in which many literatures of different nations participated in enriching it, so it falls within the framework of the concept of universality of literature.

• الدكتور فتح الله محمد

. مقدمة

جل الكتابات المنبثقة عن فن الخرافة ألهمت ولا تزال تلهم الحضارات المختلفة، وهي تجربة أدبية إنسانية، تتسم بعبورها الأزمان والأمكنة، ويمكن النظر إليها بصفتها نصوص أدبية خالدة، ساهم في إثرائها كل من الهنود والفرس والعرب، والغرب قديما وحديثا. وقد يكون هذا دليل على تعاون أدبي عالمي شكل ركنا أساسيا وآلية من آليات حوار الحضارات. وشكلت هذه الحكايات ظاهرة أدبية تستحق الدراسة، وتبعا لذلك يصبح تتبع مسار هده النصوص وهجرتها من أوجب الواجبات من أجل إعادة الاعتبار لها من جهة، ولكونها تختزن كثيرا من حكم الشرق والغرب معا من جهة ثانية. وقد يكون هذا البحث مناسبة للإجابة عن بعض التساؤلات منها:

1- كيف أسس الحكيم الهندي بيدبا لفن الخرافة؟

2- إلى أي حد نجح الفرس في نقل كليلة ودمنة؟

3- هل خدم ابن المقفع عند نقله كليلة ودمنة إلى العربية الإنسانية جمعاء؟

4- وأخيرا، ما مصادر خرافات لافونتين؟

فن الخرافة والتكامل الثقافي بين الحضارات

يرى البعض بما فيهم لفيف كبير من الباحثين بأن فن الخرافة جهد بشري مشترك. وهذا ما يصفه طه حسين قائلا: "ففي هذا الكتاب حكمة الهند، وجهد الفرس ولغة العرب وهو من هذه الناحية، من صادق دقيق لمعنى سام جليل، هو هذه الوحدة العقلية الشرقية التي تنشأ عن التعاون والتضامن وتظاهر الأجيال والقرون بين أمم الشرق عن اختلافها، والتي حققتها الحضارة الإسلامية على أحسن وجه وأكمله أيام كانت هذه الحضارة حية قوية مؤثرة في حياة الأمم والشعوب والتي نريد الآن أن نرد إليها قوتها الأولى وجمالها القديم" (المقفع، 2014، صفحة 08)

فنحن لا نستطيع ان نفهم حاضر فن الخرافة جيدا ان لم نفهم ماضيها أيضا، المشكلة كلها تقريبا لها جدور عميقة في الماضي البعيد. وعندما نتصدى للحديث عن المسالة سيكون من المفيد ان نبحث عن مسار فن الخرافة من الحقب التاريخية القديمة الى المرحلة الزمنية المعاصرة، مرورا بالعصر الوسيط والحديث.

وقد ساهم فيه كل من الهنود، والفرس، والعرب، وهذا الامر يدل على وجود أخذ وعطاء وتفاعل ثقافي بين هده الامم العريقة والمتجذرة في التاريخ البشري.

لقد انتقلت هذه النصوص الأدبية الغنية بالحكم من الشرق إلى الغرب، لتساهم في رسم شبكة علاقات إنسانية مثمرة، لتثري الثقافة الإنسانية جمعاء. وهكذا أضحى فن الخرافة "هذه الحكمة الخالدة الساذجة التي أفاضها روح الهند، ونقلها عنهم جهد الفرس وصاغها في هذه الصورة العربية الرائقة ذوق العرب وتوارثتها الأجيال بعد ذلك فنقلتها من بيئة إلى بيئة، ومن شعب

إلى شعب حتى جعلتها جزءا من التراث الإنساني الخالد هذه الحكمة في صورتها العربية رمز لما تحب أن يكون من تعاون الأمم الشرقية على إشاعة البر والتقوى وإذاعة الخير والمعروف ومقاومة الإثم والعدوان " (المقفع، 2014، صفحة 08). ومنه سيكون لهذا الفن أثر عظيم في خدمة عالمية الأدب، والتي "يراد بها هنا خروج الأدب من نطاق اللغة التي كتب بها إلى أدب لغة أو آداب لغات أخرى " (غنيمي، صفحة 27)

هكذا راح هدا الفن يهاجر من بيئة ثقافية إلى أخرى، وراح هذا العمل الأدبي يبرز جليا في كل آداب البشر، حتى أصبح عالميا، وعلى هذا المستوى يمكن اعتبار فن الخرافة بمثابة حصيلة تجربة أدبية أممية؛ بل تراث إنساني مشترك.

ضرورة الاحتكاك بين الآداب

انتبه الباحثون –حق الانتباه –لضرورة الانفتاح الأدبي، والتبادلات والتفاعلات الأدبية بين الأدب الوطني والآداب الأجنبية، بما معناه تجاوز لحدود الأدب القومي الواحد وذلك من أجل (دراقي، صفحة 05):

- بحث وإحياء الأدب القومي الذي نال من الركود والانحطاط قدر الكفاية.
- نبد الانكماش والاختلاء باعتبار أن أي أدب قومي إذا ما انطوى على نفسه ذبل وأصابه السقم والوهن.
- سيكون سبيله إلى النجاح أيسر وحظه من بلوغ الكمال التمام أوفر إذا ما تفتح واحتك بأقرانه.
- أن ينهل الأدب القومي من موارد التجديد الأجنبية لإدخال دم جديد في شرايينه، يعيد إليه لا محالة القوة، والحيوية والنشاط.

ويعد فن الخرافة مشروعا أدبيا الأكثر لفتاً للانتباه واجتذابا للنقاش والجدل في الدراسات الأدبية، والهاجس الغالب على هذا الدرس الأدبي المقارن هو" النفوذ إلى جوانب كل أدب ليتبين فيها ما هو قومي وما هو دخيل، ليتبين أهمية اللقاح الأجنبي في إخصاب الأدب القومي وتكثير ثمراته" (غنيمي، صفحة 25). عسى أن يساعد ذلك القراء على النفاذ إلى نتائج البحث الأدبي المقارن المعمق، وتقدير دور العناصر الأدبية الأجنبية ذات الخصوصية الأدبية والثقافية، بحيث ستقوم بإغناء وإحياء وتطوير الأدب القومي الخاص بكل قومية، هذه الثقافة القومية المستقبلة ستجتهد في زرع بذور أدبية غريبة عنها في أرضها.

واستطاعت نصوص فن الخرافة أن تجد لنفسها موقعا داخل المسار العام للفكر الإنساني، ونهلت منه كثير من الآداب الإنسانية الأجنبية المختلفة قديما وحديثا، وهذا المسار الأدبي المميز يمكن أن يضيف رافد آخر لفكر إنساني متطور عبر الزمن.

إن قيام الحاجة الملحة لامتلاك فن الخرافة، والإفادة من المكتسبات والحكم التي تحويها، إنما يتم عن وعي تلك الآداب والثقافات والحضارات بضرورة الانفتاح والاحتكاك بين الثقافات والآداب الأجنبية، واقتباس بعض عناصرها الراقية ودمجها ثقافيا وأدبيا. وهو ما حدث فعلا لفن الخرافة، فهي في الأصل عناصر هندية ساهمت مساهمة كبيرة في إثراء وتطوير الأدب الفارسي

القديم، ثم شكلت للأدب العربي القديم مورد تجديد، ومثلت للآداب الغربية القديمة والوسيطة والحديثة لقاحا أعاد لها الحياة على الصعيد الأدبي.

وعلى ضوء ما تقدم، إننا أمام أدب إنساني راق يضرب بجذوره في التاريخ، ووفرت الثقافة الهندية القديمة إمكانات هائلة لإبداع هذا الفن في أبهى صورة أدبية ممكنة. فالملاحظ حتى يومنا هذا أن البحوث الدائرة في مجال فن الخرافة، تهتم فعليا بربطها بالثقافة الهندية القديمة، والتصور الذي تم بلورته أضحى موقفا تقليديا ثابتا، ومنه استمد فن الخرافة المفهوم من مصادره وسياقاته الهندية القديمة، والدلائل تشير إلى اختلاف نوعي في المواقف إزاء الكاتب الأصلي لهذا الفن، وفيما يلي موجز لهذه الإشكالية (المقفع، 2014، الصفحات 29-30):

1- يعرف الكتاب الأول باسم"بنج تنترا"panchatantra، أي خمسة أبواب، ومؤلفه حكيم هندي اسمه: برهمن وشنو vichnusharman ، ألفه حوالي سنة 300 ميلادية.

2- يعرف الكتاب الثاني باسم"هتوبادشا" hitopadesha أي: نصيحة الصديق، وقد ضاع في أوروبا وترجم إلى بعض لغاتها، وترجم إلى الانجليزية ثلاث مرات.

وعلى ضوء ذلك، فإن الانشغال بهذا الهاجس الذي سينقلنا إلى الجمع بين شخصيتين "بيدبا" و"وشنو"، والاعتقاد بأنهما يمثلان شخصا واحدا.

فهل أفلح الباحثون في تحديد الكاتب الأصلي لكليلة ودمنة بكل دقة ووضوح؟

الحكيم بيدبا أم وشنو ممثلا لفن الخرافة في الهند.

يبدو أن ترجمة ابن المقفع لكليلة ودمنة إلى العربية، تحيلنا مباشرة على الفيلسوف والحكيم بيدبا كممثل أوحد لكليلة ودمنة أو فن الخرافة، وقال عبد الله بن المقفع دون أن تشوب كلماته أدنى نبرة من نبرات الشكك: "وكان في زمانه [الملك دبشليم] رجل فيلسوف من البراهمة، فاضل حكيم، يعرف بفضله، ويرجع في الأمور إلى قوله، يقال له بيدبا" (بيدبا، 2017، صفحة 14)، وهذه الترجمة حصيلة تجربة فريدة تتميز بنقل خلاق لمعانيها من الفهلوية إلى العربية، وهكذا يمكن النظر إلى عمله المثير للاهتمام باعتباره مجهودا ترجميا، ووثيقة تاريخية قوية تحيلنا إلى الكاتب الأصلي لقصص على لسان الحيوان. حيث بين أن هذا المنجز الأدبي العابر للازمان والمكان مبدعه دون شك ودون تعميق النقاش فيه لاحقا هو الحكيم والفيلسوف الهندي بيدبا عاش في زمن فتوحات الإسكندر الأكبر المشهور بذي القرنين (356-323 ق م) الفاتحة للشرق وصولا إلى الهند.

الحوار والتفاعل بين الهند والفرس: التعاون المستمر

استفادت فارس القديمة المتأخرة مما يحفل به التراث الهندي القديم من خرافات، نظرا لكونها تشكل رحما لفن الخرافات، ويظهر ذلك جليا في الحضور المكثف للأمثال الخرافات، والأسمار والأحاديث الهندية في الثقافة الفارسية، وتبعا لذلك تصبح هذه الأخيرة مهمة.

والنظر في صيغة العلاقة بين الهند وفارس في التاريخ القديم هي علاقة انفتاح طوعي للإمبراطورية الساسانية على التراث الثقافي والحضاري والأدبي الهندي القديم الغني، وهذا الانفتاح ما هو إلا رغبة ملحة في امتلاك نص أدبي بلغة قومية فارسية فهلوية من اجل إغناء الأدب القومي الفارسي القديم من جهة، والثقافة من جهة أخرى، وهي دلالة إعجاب واضحة بكل ما هو هندي من طرف الفاعلين آنذاك على الأصعدة الحضارية، والثقافية، والأدبية، واللغوية...الخ. ومشروع محاولة نقل خرافات الهند من التراث الهندي المرسل إلى التراث الفارسي المستقبل صاحبته رسم خطة محكمة من طرف الراغبين في ذلك من أصحاب المرتبة العالية في نظام الحكم الساساني.

وقد وضع كسرى أنوشروان (531-579) (khosrozAnushirwan) العمل الإبداعي للحكيم بيدبا دائما نصب عينيه، وشكل بغيته بصفته منجزا أدبيا هنديا راقيا وجب نقله مهما كلفهم من عناء، وما دام واقع تحت سيطرة وقوة جذب هذا الكتاب الكنز، فإنه لمن المؤكد تاريخيا أن هذا الملك أمر برزويه بن أزهر الفيلسوف (Borzouyeh) بالذهاب إلى الهند من أجل جلب هذا الكتاب إلى ملكه الفارسي، وفعلا "أخرجه من بلاد الهند فأقره في خزائن فارس" (بيدبا، 2017، صفحة 45).

والمهمة الملقاة على عاتق المكلف بذلك شديدة التعقيد والصعوبة، وسوف يساعده برزويه في مشروعه متعاون هندي، الذي تعاطف وقدم له ولفارس خدمة تدخل في إطار التعاون الإنساني من منظور حوار الحضارات والثقافتان وشكلا الاثنان معا قنطرة وقناة توصيل تمر عبرها عناصر التأثير الأدبي الهندي القديم غير المباشر إلى الأدب واللغة الفهلوية.

إنه مرور غير مشكوك فيه للثقافة الهندية القديمة إلى حياة الساسانيين، فالمتعاطف الهندي " وكان الهندي خازن الملك، وبيده مفاتيح خزائنه. فأجابه إلى ذلك الكتاب وإلى غيره من الكتب. فأكب على تفسيره ونقله من اللسان الهندي إلى اللسان الفارسي." (بيدبا، 2017، صفحة 63)، قد يكون هذا الحارس الهندي مؤمنا بالتبادل الثقافي بين التراثين الهندي والفارسي، وربما كان حاملا لفكرة الحرية والتسامح، فهو نموذج خادم لوحدة الثقافة، ففتح خزانة الهند للآخر، عمل ساهم في إذاعة الخرافات خارج حدود الهند، عناصر هندية غريبة وافدة من الخارج ستحاور فارس ثقافيا.

وسوف يستغل برزويه هذه الفرصة التاريخية، وأجهد نفسه على "تفسيره ونقله من اللسان الهندي إلى اللسان الفارسي واتعب نفسه وانصب بدنه نهارا وليلا وهو مع ذلك رجل فزع من ملك الهند خائف على نفس من أن يذكر الملك الكتاب في وقت ولا يصادفه في خزائنه" (بيدبا، 2017، صفحة 63)، وقد قام باستخدام جميع الإمكانيات المتاحة من أجل امتلاك هذا الكتاب،

وتجاوز؛ بل ووقف أمام عراقيل اختلاف اللغات، وتغلب على مشاكل الترجمة وصعوباتها، فعمله الترجمي اقتباس يولي أهمية بالغة لخصوصية البيئة الفارسية أدبيا ولغويا وثقافيا.

فقد وفرت هكذا الثقافة الهندية إمكانيات هائلة للثقافة الفارسية، وهذا العمل البالغ الأهمية تاريخيا دليل واضح ومثال على التبادل بين الحضارات والثقافات.

تكريم برزويه تخليدا له في التاريخ الإنساني

ما قام به برزويه من نقل لمعاني خرافات بيدبا بمطلب من ملك الإمبراطورية الساسانية تقديرا لصاحب العمل الترجمي العظيم، وضرورة تكريمه. بيد أن برزويه كان ذكيا وحكيما في إيجاد مقابل مادي أو معنوي لمنجزه المتقن، فطلب طلبا عبقري يبقيه خالدا عبر الأزمان، وذلك بضرورة "تبوب الكتاب ويجعل تلك النسخة بابا يذكر فيه أمري ويصف حالي ... أن يجعله أول الأبواب التي تقرا قبل باب الأسد والثور فان الملك إذا فعل ذلك فقد بلغ بي وبأهلي غاية الشرف وأعلى المراتب وأبقى لنا ما لا يزال ذكره باقيا على الأبد حيثما قرئ هذا الكتاب" (بيدبا، 2017، صفحة 68). وأمام مثل هذه النظرة الثاقبة المستقبلية الإستشرافية لرجل تجاوز فكره القومية وضيق دائرتها إلى العالمية عظمة دائرتها.

لقد كان بروزيه يعلم جيدا عالمية هذا النص الأدبي، فأراد ربط هذا الإبداع الأدبي باسمه، وذلك بذكر حياته الشخصية والعلمية على شكل تقديم قبل المتن الرئيسي لهذا النص الأدبي الهندي، وقام بهذا العمل التقديمي وزير "أنوشروان" "بزرجمهر"(Bozorgmher) وذلك بوصف "برزويه من أول يوم دفعه أبواه الى المعلم ومضيه إلى بلاد الهند في طلب العقاقير والأدوية وكيف تعلم خطوطهم ولغتهم إلى أن بعثه أنوشروان إلى الهند في طلب الكتاب" (بيدبا، 2017، صفحة 70)، وقد بذل الوزير كل ما في وسعه لتعريف ببروزيه، وبمنشئه الثقافي والاجتماعي، والقناعات التي يعتنقها ويؤمن بها.

وعلى هذا الصعيد يمكن اعتبار هذه الترجمة الفارسية بمثابة مختبر غني جدا، أو هي كبوتقة صهرت بداخلها العناصر الهندية والفارسية. وما هذا التفاعل الحضاري والثقافي إلا هجرة أدبية لنص من زمن إلى زمن، ومن وطن إلى وطن، ومن لغة إلى لغة.

أسباب ظهور كتاب كليلة ودمنة في العربية

لقد استفاد ابن المقفع (724م – 759م) من الإمكانيات الهائلة التي وفرتها له اطلاعه الواسع بثقافات الهند وفارس واليونان والعرب، حيث أصبح حلقة وصل تربط الثقافتين الفارسية والعربية، كما شكل قنطرة تمرّ عبرها كل التبادلات الأدبية واللغوية والفكرية والثقافية، والحضارية من المعين الفارسي إلى البيئة العربية والإسلامية. وقد صاغ هذه الفكرة عبد الوهاب عزام صياغة جميلة قائلا: "لمؤرخي الآداب كلام كثير في تأثير الأدب الفارسي في الأدب العربي في تلك العصور والترجمة من أقوى

الوسائل لتأثير أدب في أخر فدراسة هذا الكتاب تبين صلة ما بين الفارسية والعربية في القرن الثاني وتبين أن الأساليب العربية أخذت من الأساليب الفارسية أو لم تأخذ؟" (المقفع، 2014، صفحة 12).

وبناء على ما سلف استفاد الأدب العربي دون شك من في فترة احتكاك وتصادم الحضارتين الفارسية والعربية من كنوز الفرس الأدبية والفنية والجمالية...الخ. وخصوصا القصص على لسان الحيوان، حيث أسهم هذا النوع من الكتابة الأدبية في إغناء مكونات الثقافة والأدب العربي، وحول مسارهما نحو مزيد من التطور، فمثلا رفعه من شان فن النثر العربي.

هذا الأمر، أحدث تحولا ثقافيا وأدبيا داخل المناخ الثقافي والأدبي والحضاري الساساني يرجع سببه إلى المثاقفة بين الأمتين المتجاورتين جغرافيا الإمبراطورية الساسانية والعرب. فالمثاقفة آلية من آليات حوار الحضارات والثقافات مبنية على المبادلات الثقافية والتجارية، نتائجها إكساب عناصر جديدة بالنسبة للثقافتين المتصلتين الفارسية (المغلوب) والعرب (الغالب) (بكار، 1996، صفحة 47).

وهكذا استفاد ابن المقفع من السياق التاريخي الحافل بالأحداث التاريخية العربية والإسلامية جاعلة من العرب والمسلمين أمة مؤثرة على جميع الأصعدة.

ضمن هذه الظروف الاستثنائية عايش ابن المقفع ثقافتين متداخلتين، فنهل من الخزانين الثقافي والقصصي الفارسي والموروث عن الثقافة الهندية، ليحاول نقل معانيه الخلاقة من لغة المصدر الفهلوية إلى لغة الهدف العربية، مما ساهم في إغناء الثقافة المستقبلة بفن الخرافات.

هذا المجهود الترجمي ساهم مساهمة كبيرة في تطوير النثر العربي، وقد رأى ذلك عبد الوهاب عزام حين عبر بقوله: "فهو من أقدم مابين أيدينا من كتب النثر العربي وأسلوبه مثال من أقدم أساليب الإنشاء في لغتنا وهو بذلك جدير بعناية مؤرخي الأدب العربي" (المقفع، 2014، صفحة 12).

فبن المقفع من بين الكتاب والمفكرين ذوي المشاريع الكبرى (صاحب مشروع المدرسة الرائدة في النثر) الأكثر لفتا للانتباه واجتذابا للنقاش، فكان هاجسه الأكبر هو التفكير في تطوير النثر العربي ليكون قادرا على الاستجابة لمتطلبات الحضارة العربية الإسلامية من أجل مجابهة التحديات التاريخية والمعرفية. إن اقتباساته الأدبية نموذج استنبت في وسط أدبي عربي، امتد أثره إلى إحداث تحول ثقافي وأدبي دفع بالأدب العربي القديم إلى التطور.

وهكذا أتاح ابن المقفع للقارئ العربي القديم والحديث نصا ذا أهمية بالغة. الا ان هذا الكاتب المثير للاهتمام والجدل انتهت حياته بطريقة مأساوية عام 759م في العصر العباسي المتقدم، فقد اتهم بأنه لم يتخل عن ديانته المجوسية المانوية في مقابل تظاهره بالإسلام، لذا ألصقت به تهمة الزندقة مما أدى إلى تصفيته جسديا.

الواقع أن ترجمة ابن المقفع لكليلة ودمنة أصبحت عملا أدبيا وترجميا وصلنا كاملا، يمكننا النظر إليه على أنه نسخة أصلية لكل ما "في اللغات الأخرى – حاشا الترجمة السريانية الأولى – فقد فُقِدَ الأصل الفلهوي الذي أخذت عنه الترجمة العربية وفُقد

بعض الأصل الهندي الذي أخذت عنه الترجمة الفهلوية واضطرب بعضه فصارت النسخة العربية أمّا يرجع إليها من يريد إحداث ترجمة أو تصحيح ترجمة قديمة؛ بل يرجع إليها من يريد جمع الأصل الهندي وتصحيحه" (المقفع، 2014، صفحة 12). وعليه، ضاعت النسختين الهندية (التي لم يتبق منها إلا شذرات أي كتاب هتوبادشا) والفارسية، لذا، حظي كتاب ابن المقفع باهتمام الباحثين العرب، وغير العرب، وهو سر شهرته العالمية.

محاولات نقل معاني كتاب ابن المقفع إلى اللغات اليونانية والعبرية والقشتالية واللاتينية.

اتجهت مهمة الأمم باختلاف لغاتها القومية إلى محاولة نقل معاني كليلة ودمنة، وجعلت منه نصا فعالا ومؤثرا في مناخها الفكري، وهي كالاتي:

1- ترجمته إلى اليونانية: حظي كتاب كليلة ودمنة باهتمام الحضارة البيزنطية في القرون الوسطى، فنقلوه إلى لغتهم في القرن الحادي عشر الميلادي، عن طريق سيمون سيث (Symeon Seth).

2- ترجمته الى العبرية: نجح اليهود في ترجمته إلى اللغة العبرية عن طريق 'ألربي جويل' (Rabbi Joel) في القرن الثاني عشر الميلادي.

3- ترجمته الى القشتالية: وصل هذا الكتاب إلى إسبانيا المسيحية عام 1251م بطلب من الملك ألفونسو العاشر (Alphonse x Le Sage)

4- ترجمته الى اللاتينية: نقل هذا الكتاب إلى اللغة اللاتينية عام 1278م بمساعدة جان كابو (Jean Capoue)

فقد سعت كل لغة إلى امتلاك معاني هذا الكتاب المملوء بالحكمة الشرقية من جهة، والتمكن من هذا النمط الفريد من الكتابة من جهة أخرى.

- ترجمته إلى الفارسية الإسلامية: سعت فارس الإسلامية لتحقيق غاية إعادة جلب كليلة ودمنة، وزرعه من جديد في مناخ فكري فارسي إسلامي، و" من ترجمات كليلة ودمنة إلى الفارسية الحديثة (الفارسية الدّرية الإسلامية لا البهلوية القديمة) ترجمه حسين واعظ كاشفي (من أواخر القرن الخامس عشر الميلادي) المعروفة باسم "أنوار سهيلي" هي التي تأثر بها لافونتين لأنها ترجمت إلى الفرنسية عام 1644م"، والمترجم الفرنسي هو جيلبير جولمان Gilbert Gaulmin مستشار الدولة الذي كان يعرف اللغات" (بكار، 1996، صفحة 239).

ما هو مصدر خرافات لافونتين؟

إن الوقوف على الملامح العامة للخرافات وأصلها الشرقي، وهذا التأليف ما هو في الأخير إلا التراكم" المعرفي البابلي نفسه، أي أنها تعود في أصولها إلى الآداب الرافدينيَّة ومأثوراتها، في فتراتها البابلية المتأخرة. وما من ريب في أنها، وقصصا مماثلة لها، انتشرت فيما بعد، شرقا، أيضا حتى بلغت الهند وتطورت. وبعد قرون، عاد الكثير منها –بشكل أو بآخر–إلى العراق، من جديد بخاصته في كتابه كليلة ودمنة الذي رأى أن ابن المقفع وضعه بالعربية مستقيا حكاياته من الخزين القصصي المتوارث محليا، والمتصل من الهند إلى فارس إلى العراق إلى اليونان، وذلك بفعل الطاقة الأصلية التي انبثقت قيل ذلك بأكثر من ألف سنة، في آداب وادي الرافدين" (لافونتين، 1987، الصفحات 13-14).

وقد احتك لافونتين بالمفكرين والأدباء في صالون أدبي مشهور وهو النادي الأدبي والمركز الثقافي أدارته باقتدار الفرنسية " دي سابلبار الذي كان يعرف بالأدب الغربي في فرنسا في القرن السابع عشر ففيه تعرف لافونتين على القصص الحيواني الغربي وتأثيره" (بكار، 1996، صفحة 69).

أعطى لافونتين(1621-1695) (Lafontaine) دفعة قوية للأدب الفرنسي الحديث، وذلك بإدخال نوع روح أدبية جديدة، فخرافات لافونتين عمل أدبي وصل العالمية، وأحالنا دون شك إلى حياة فكرية وأدبية ثرية، مشكلا بذلك رؤية فرنسية أوروبية متفردة، تشي بأن الرجل صاحب مشروع أدبي واضح المعالم، هدفه نقل الخرافات إلى الأدب القومي الفرنسي.

فيما يتعلق بالتعريف المعتمد للخرافة فهي "جنس (نوع) أدبي مستقل له سماته الفنية الخاصة به ومعيار البراعة فيه النسبة بين الرموز (الإبطال) وما ترمز إليه من شخصيات حقيقية بحيث يكون القناع الذي تختفي الأشخاص خلفه غير كثيف كيلا تنطمس الغاية الرمزية من القصة" (بكار، 1996، صفحة 238).وقد إهتم لافونتين بفحص مكونات الخرافات، وقد مكنه التحليل من استخلاص أبرز هذه المكونات التي حصرها كالتالي:" الجمع بين التعليم والمتعة هو هدفه من الحكاية... الخرافة تتكون من جزأين ما يمكن أن نسمي أحدهما جسما والأخر روحا فالجسم هو الحكاية أما الروح فهي المعنى الخلفي للحكاية " (لافونتين، 1987، صفحة 69)، وهكذا خصص لافونتين جزء من مجهوداته في النظر في طبيعة الخرافة، وبالمقابل عمل بطاقة لإثراء أدبه الوطني.

إن تحديد المصادر المتحكمة في لافونتين، من أجل بيان الحاجة إلى منابع البحث ومراجعه، التي تعددت نظرا لطبيعة الموضوع التي تتجاذبه وجهات نظر متباينة، بحيث يخضع لافونتين لمصادر متعددة أهمها:

1. المصدر اليوناني

هذا المصدر، هو الذي استند إليه لافونتين بالاشتغال على حكايات إيسوب (Esope) و"عزم على إعادة روايتها شعرا، وعالج –كما يقول–ما يقارب نصف عددها" (المقفع، 2014، صفحة 12). ومن المهم أن نلاحظ أن إيسوب" شخص تاريخي و"هيردوتس" يذكره في تاريخه ويورد بعض المعلومات الأساسية عن حياته، وكانت له حكايات معروفة واسعة الشعبية في

أثينا، زمن سقراط الذي ولد بعد إيسوب بحوالي مئة وعشرين سنة عام (469 ق. م) و"أفلاطون " هو الذي يروي كيف أن سقراط شغل نفسه بنظم بعض هذه الحكايات شهرا قبيل إعدامه" (لافونتين، 1987، صفحة 13).

كما رجع إلى المصدر اللاتيني، إذ اعتمد على ترجمة فيدروس (65-8 ق.م) (Phèdre) الشاعر اللاتيني الذي قام بترجمة حكايات إيسوب إلى اللغة اللاتينية، وكانت ترجمته منتشرة في أوروبا، في العصر الوسيط (لافونتين، 1987، صفحة 13). و"الترجمة اللاتينية الشعرية التي كان قد قام بها في القرن الأول للميلاد الشاعر من "مقدونيا" يدعى "فيدروس"، الذي كان هو أيضا في الأصل عبدا لصاحب الحكايات، حرر الإمبراطور الروماني "أغسطس" وجعله يعيش في بلاطه، وكانت ترجمته شائعة في أوروبا في القرون الوسطى" (لافونتين، 1987، صفحة 13).

يقصد إنجاز فيدروس الذي استهدف لتننة (Latiniser) هذه الحكايات، أي تقديم نسخة لاتينية لإثراء الثقافة اللاتينية القديمة. هكذا رجع لافونتين إلى المنبع اليوناني-اللاتيني، لأن الرجل كان في ميوله عاشقا للقاعدة الإغريقية-اللاتينية.

2. المصدر الهندي

لم يصرف لافونتين النظر عن المصدر الشرقي، جعله ينظر إلى الموضوع من زاوية الخزين القصصي الهندي القديم، ويزيد مترجم حكايات لافونتين جبرا إبراهيم جبرا من التفاصيل الموضحة لهذا "من المهم أن نلاحظ أن لافونتين بداء لمجموعته الثانية يعترف في توطئة لها باستقائه من حكايات الحكيم الهندي بيدبا وذلك من ترجمة فرنسية مختصرة لكتاب كليلة ودمنة ظهرت عام 1664" (لافونتين، 1987، صفحة 12). ويعترف لافونتين ان اسسه الفكرية استندت إلى الحكمة الهندية.

3. المصدر العربي والإسلامي

- ابن المقفع

لا بد من الإشارة إلى أن لافونتين "أضاف ...إلى هذه الحكايات الكثير من مصادر عربية بخاصة، من " كتاب كليلة ودمنة" (لافونتين، 1987، الصفحات 13-14).

- لقمان الحكيم

وصف بالحكمة والموعظة والوصايا في المصنفات الإسلامية القديمة، وسميت سورة قرآنية باسمه "سورة لقمان". وقيل بأنه كان عبدا أسودا عظيم الشفتين، مشقق القدمين، أو عبدا حبشيا، غليظ الشفتين، مصفح القدمين، وكان عبدا نوبيا أسودا (الغرياني، الصفحات 3-6).

وهنا تتقاطع شخصيات لقمان وإيسوب وبيدبا في مسالة العبودية، وتطرح قضية: "هذا إذا لم يكن الثلاثة هم جميعا الكاتب نفسه مدعوا بأسماء ثلاثة (لافونتين، 1987، صفحة 13).

وهو أمر يستحق الذكر، وعلى ضوء ذلك مشروع لافونتين استند إلى مصادر شرقية وغربية، حيث أتاح تنوع المراجع إمكانية توسيع الرؤية وتعميق النظر في مسالة الخرافات.

إدخال التلوينات المحلية على الخرافات

ساهم لافونتين في نقل الخرافات وتسريع هجرتها إلى الثقافة والأدب الوطني الفرنسي الحديث، ويعتبر عمله هذا بمثابة طبعة فرنسية (قام بفرنسة (franciser) الخرافات كما فعل ذلك قبله فيدروس في التاريخ القديم عندما قام بلتننة هذه القصص)، وهذا لا ينقص من قيمة الرجل، فهو ظل وفيا للثقافة القومية الفرنسية، حيث استند إلى "مأثورات المجتمع الفرنسي وسمح لنفسه في هذه الأحوال كلها بالتصرف بالمحتوى والأسلوب على نحو جعل للحكايات جوا فرنسيا وأضفى عليها من شاعريته وبيانه ودعابته، وكذلك من حسه السياسي، والاجتماعي، لأحداث وعادات عصره مما جعل لها مذاقا خاصا كثيرا ما يصعب نقله حتى إلى اللغات الأوروبية الأخرى" (لافونتين، 1987، صفحة 14).

هذا المطلب هو الذي اشتغل عليه بقصد انجاز نسخة فرنسية رأت النور في القرن السابع عشر الميلادي، ومنهجه في الكتابة كان مرتكزا على إدخال تعديلات وتلوينات ورتوشات محلية فرنسية على هذه الخرافات فهو "لم يكتف المجرد كتابتها شعرا؛ بل أضاف جزيئات طريفة من عنده الى التركيبة القصصية كما أضاف العشرات الحكايات الأخرى التي جعل منها وسيلة لقول الكثير من أراد قوله على طريقته الخاصة" (لافونتين، 1987، الصفحات 5-6).

هذا الأمر هو ما سيطبقه في كتابة حكاياته، إذ لافونتين لا يمارس الترجمة الحرفية لنصوص إيسوب، بيدبا، ابن المقفع، وفيدروس إن توفرت له كاملة؛ بل كان الرجل يضيف أمورا خاصة تحيلنا إلى عبقريته الفذة، وشخصيته العظيمة، علاوة على تجارب أمته الفرنسية.

وهذا العمل والأثر الأدبي الخالد مربوط بالتاريخ أوروبا الحديث، والمكان فرنسا الأوروبية كان لحظة تاريخية فارقة عندما جعل من فن الخرافة أو حكايات على ألسن الحيوانات جنسا أدبيا يعرف باسم (fable) داخل الدراسات الأدبية، وساهمت في بنائه شروط معرفية وتاريخية، وميولات لافونتين، وعشقه لهذه الحكايات العابرة للازمان والأوطان.

في الحقيقة الخرافة "قصة حيوانية ذات مغزى يتكلم الحيوان فيها ويتمثل مع احتفاظه بحيوانيته، ونسبت إلى الحيوان خاصة لأن القصص التي وردت عنه أكثر ودوره فيها أظهر. ويفهم من هذا أن الطير والنبات والجماد والإنسان تسند إليهم أدوار من البطولة والأهم من هذا كله أن هؤلاء الأبطال جميعا من أي جنس كانوا ليسوا سوى رموز لأشخاص حقيقيين " (بكار، 1996، صفحة 237).

ويمكننا النظر في أصل كلمة خرافة في المصادر الأجنبية، والتي تعرفها كما يلي: "الحكاية أو الخرافة مصطلح لاتيني الأصل " fabula" أصبح في الانجليزية والفرنسية

"fable " وله المعاني الآتية:

1- قصة حيوانية لا مغزى لها " beast fable"

2- قصة حيوانية لها مغزى وتساوي الموعظة (Apologue) المأخوذ عن اليونانية (Apologos)

قصة خيالية بشكل عام (Fiction) أي أهم من قصة حيوانية" (بكار، 1996، صفحة 237).

تفاعل الأدب العربي الحديث مع خرافات لافونتين

لقد انشغل الأدب العربي الحديث في فترة المثاقفة العربية بهضم العناصر الأدبية الأجنبية الغربية من أجل بلورة أدب عربي يتجاوز مرحلة الانحطاط، وأثبتت الوقائع استفادة العرب المحدثين من خرافات لافونتين.

ويمكننا الكشف عن مجموعة من الأعمال التي تشي بهذا الاشتغال:

– محمد عثمان يوسف جلال (محمد بك عثمان جلال) (1828-1898) " العيون اليواقظ في الأمثال والمواعظ، عن خرافات لافونتين الفرنسية"، يعد أول من نقل خرافات لافونتين.

– أحمد شوقي (1869-1932)، في شعره التعليمي المنظوم للأطفال تحديدا، فقد استلهم أحمد شوقي من أدب الخرافة الفرنسي الكثير شكلا ومضمونا، وتميز مشروعه بالجمع بين الشعر والخرافة، وفي هذا السياق يقول محمد الهادي الطرابلسي: "إن نظم القصص المثلية في قالب حكايات شعرية شخصية، ظاهرة أدبية خلقها شوقي في البيئة العربية، وجسمها في كثير من اللوحات. لكنها ظاهرة لم تتبع. فقد انطلقت معه وتوقفت عنده وبذلك يبقى شوقي لافونتين العرب بلا منازع" (الطرابلسي، 1981، صفحة 281).

– جبران النحاس (جبران يوسف النحاس) (1882-1954) في كتابه " تطريب العندليب "

– إبراهيم العرب " آداب العرب" عام 1913.

– نقولا أبو هنا المخلصي (1888-1956) " أمثال لافونتين "

– أحمد فارس الشدياق (1804-1887) " اللفيف في كل معنى طريف" تشكل ترجمته لفن الخرافة فرصة للحضارة الإنسانية للتعرف على الخرافات، فكان خياره موفقا، بل حتمية على المستوى الترجمي.

مجالات حوار الحضارات

يعد الصدام الميداني بين العرب والفرس وإسقاط الإمبراطورية الفارسية الساسانية حدثا تاريخيا عظيما ولحظة تاريخية تأسيسية فرضت على الطرفان العرب الغالبين والفرس المغلوبين الدخول القسري في حوار ثقافي وأدبي ولغوي...الخ، للتخفيف من نتائج الصراع، والصراع يشكل أيضا قناة توصيل بين الطرفين المتصادمين، حتى وإن كان هذا التناطح دمويا، فالمرور غير المشكوك فيه للعناصر الفارسية إلى الثقافة العربية الإسلامية، والعكس صحيح.

غير أن هذا الحوار الحضاري أعاقته نسبيا بعض الأمور العرقية: عرب/فرس والدينية: الإسلام/والديانات الفارسية القديمة كالزرادشتية والمازدكية والمانوية، ربما قادتها بعض التصورات الماضية المغلوطة عن الآخر الفارسي مثلا.

قد يكون ابن المقفع يريد لهذا الحوار الحضاري مقاصد من بينها:

ينشر على نطاق واسع قيم التسامح، الحرية، الفكرية، الدينية، ومفهوم العدالة بين مختلف الأعراق، وحلم بحلم التعايش السلمي بين العرب والفرس في الإسلام.

وكان يحلم أيضا بالتبادل الثقافي، الذي سينتج لا محالة تحولا ثقافيا على مستوى الحضارة العربية الإسلامية، وتحقق هكذا تقدما للحضارة الإنسانية، وذلك بزرع بذرة فارسية في أرض عربية.

هل كان ابن المقفع يحلم بحتمية الحوار الحضاري في نهاية عصر بني أمية وبداية عصر الخلافة العباسية، لتستوعب الحضارة العربية والإسلامية روح الحضارة الفارسية الساسانية، وتتفاعل مع عناصرها الراقية، وهكذا تصبح حضارتنا حضارة متفردة تحترم التعدد والاختلاف.

إن ابن المقفع كاتب، مترجم، فيلسوف، وأديب صاحب تجربة فريدة من نوعها، وصاحب شخصية مركبة يحمل في جعبته الصراع والحوار في آن واحد.

إن أسلوب ابن المقفع وطريقة تفكيره معاصرة بالنسبة لنا، على الرغم من بعده زمنيا عنا، من هنا تجاوز إطاره الزماني بكثير، وهذا راجع لعبقريته.

نهايته المحزنة والمثيرة للجدل دينيا وسياسيا.

لقد خلد ابن المقفع اسمه، لأنه طوع لسان العرب على المستوى النثري، أما عن نتاجه الأدبي، والفكري، فقد دخل دائرة العالمية، وتمثل أعماله الأدبية حدثا في تاريخ الآداب العربية، فاليوم نحن في اشد الحاجة إلى شخصية مثل ابن المقفع مؤمن بمبدأ الحوار.

بيد أن نهايته كانت مأساوية، لم يستسلم لما هو مألوف في وقته، على العكس من ذلك تجرأ على نقد الحاكم وعاداته وتقاليده في السياسة.

ومن خلال النظر إلى أصل ابن المقفع فهو" فارسي الأصل اسمه (روزبه) كان أبوه من قرية (جور) (فيروز...) لمقاطعة فارس (سيراز اليوم). انتقل الأب إلى البصرة والتحق بديوان الخراج لعهد الحجاج بن يوسف الثقفي، فاختلس مالا، فضربه الحجاج حتى" تقفعت " " يبست" يداه، فلقب ب " المقفع" ومن هنا قيل لابنه " ابن المقفع" (بكار، 1996، صفحة 236).

وقد شكلت عقيدة ابن المقفع محطة أخرى للوقوف على ملامحه العقائدية التي ميزت طبيعته، وفي هذا الإطار" لم يسلم ... بل ظل مجوسيا وعلى دينه نشأ حتى قيام دولة بني العباس التي اتصل بها –بعد أن اشتهر في الكتابة–فكتب لعيسى بن علي عم الخليفة المنصور، وأسلم على يديه (عيسى). حينئذ تسمى ب"عبد الله" وتكنى ب " أبي محمد" ويقال أنه أسلم تقية ليتخذ من الإسلام قناعا لزندقته ومانويته التي ربما كانت سببا من أسباب قتله عام 142 أو 143 أو 145هـ" (بكار، 1996، صفحة 236).

وبناء على ما سلف تبقى معتقداته محل شك بالنسبة للقدماء، لكنه كان يؤمن في زمانه بقضايا عصره العادلة، وجابه الأزمات دون خوف. رغم ذلك ساير ثقافة عصره أي هيمنة الثقافة العربية والإسلامية والأدب العربي واللغة العربية، بمعنى هل اعتنق كل هذا خوفا وذلك حتى يخفي ديانته الحقيقية، حتى لا يكتشف أمره ويوضع في خانة الزنادقة أم طواعية وإيمانا منه. لم يتجنب النقد اللاذع للحكام حينها، وخاض معارك سياسية ونقدية مع هؤلاء، كانت نتائجها هلاكه.

هناك فترات زمنية في تاريخ البشرية مظلم، وهذا يشكل عائقا أمام العلماء لمعرفة ما هو غير معروف، أو مخبوء حول قضايا أدبية وثقافية...الخ. وقد يختلط علينا أثناء القيام بدراسات أدبية ما هو ديني وسياسي.

خاتمـــــة

في الختام، تمثل الخرافات ميراث تاريخي يشترك فيه الشرق والغرب قديما وحديثا. وقد ساهمت في تطويره وانتقاله أجيال متعاقبة، وأشرت عليه الكثير من الأمم بطابعها المحلي والثقافي والاجتماعي والديني والشخصي. ويمكن اجمال النتائج المتوصل اليها في الاتي:

- الحضارة العربية الإسلامية وارثة الهند واليونان والفرس على الأصعدة الفلسفية والأدبية والعلمية. حلول علوم القدماء وآدابهم في الحضارة العربية الإسلامية، لتعيش هذه العناصر الدخيلة من جديد، وتتطور لتواصل مسيرتها العابرة للحضارات القديمة والحديثة والمعاصرة، خدمة للإنسان وارتقاءه وتقدمه، ويدخل كل هذا في مفهوم التعاون الثقافي.
- لا يمكننا الفصل بين الحضارات سواء أكانت هندية وفارسية ويونانية وعربية على الأصعدة الأدبية والعلمية والفلسفية والثقافية والفكرية، فهؤلاء ساهمت انجازاتهم في إخصاب الحضارة العربية الإسلامية وتطويرها، ولو بنسب متفاوتة، وهذا

لا يعني التقليل من قوة الثقافة العربية والإسلامية التي تلقت عديد العناصر الأجنبية الدخيلة الغريبة عنها، وقامت بهضم بعضها.

- ومن وسائل الحوار الحضاري الترجمة، فابن المقفع يمثل همزة وصل بين ثقافتين، لغتين، عقليتين، ديانتين، أدبين، حكمتين، فلسفتين، وعلمين.
- مثل ابن المقفع لوحده "مؤسسة علمية" قامت بدور نقل جنس أدبي، حكمة، وفلسفة من لغته الأم الفارسية الفهلوية إلى اللغة العربية.
- وقد أضحى عمله الترجمي العظيم طريقا ضروريا لتطوير الأدب العربي القديم، وإكثار ثمراته في ميدان فن الخرافة.
- وقد كان هذا الخيار الترجمي حماية لهذا الفن من الاندثار والموت، فأعاده إلى الحياة من جديد، وثبت نص كليلة ودمنة المثير للاهتمام في اللغة العربية، بحيث أصبح نصا أصليا في غياب النصوص السابقة.
- ووصل أدب الخرافة إلى العالمية عن طريق الترجمة. وتهدف الخرافات إلى زرع الحكمة والموعظة والوصايا والتعليم، وبناء عالم يسوده العدل.
- والملاحظ ان مصادر البحث ومراجع لافونتين قد تعددت، نظرا لطبيع الخرافات الذي تتجاذبه منابع متباينة، حيث اخضع خرافاته لرؤية الفرنسية الأوروبية، بحيث أتاح له التنوع إمكانية توسيع فن الخرافة وتعميقها.

قد تكون الدراسة ونتائجها قاعدة تنطلق منها بحوث علمية أخرى تهتم وتشرح وتناقش موضوع تتبع هجرة الخرافات من بلد إلى أخر من وجهة نظر تزامنية (ستاتيكية) لتحليل التلوينات المحلية التي أدخلت عليها، والاهتمام بعبقرية الكتاب المحليين في المجال.

قائمة المراجع والمصادر

- الزبير دراقي. *محاضرات في الأدب المقارن*. الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية.
- الفيلسوف الهندي بيدبا. (2017). *كليلة ودمنة*. بيروت لبنان: دار الكتب العلمية.
- جان دي لافونتين. (1987). *حكايات لافونتين*. قطر: كتاب الدوحة.
- عادل الغرياني. *وصايا لقمان*. شبكة الألوكة.
- عبد الله بن المقفع. (2014). *كليلة ودمنة*. مصر القاهرة: مؤسسة الهنداوي.
- محمد الهادي الطرابلسي. (1981). *خصائص الأسلوب في الشوقيات*. تونس: منشورات الجامعة التونسية.
- محمد هلال غنيمي. *دور الأدب المقارن في توجيه دراسات الأدب العربي المعاصر* . مصر: نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع.
- يوسف بكار. (1996). *الأدب المقارن*. فلسطين: منشورات جامعة القدس المفتوحة.